مَواقف وقضايا أدبية

تأليف: د. سهيل ادريس

تحليل ومراجعة: ياسر الفهد

يعرض كتاب (مواقف أدبية) للدكتور سهيل ادريس مجموعة من المقالات ذات الصبغة الأدبية والصحفية والفكرية والقومية. ومع أن هذه المقالات سبق أن نشرت في أزمنة متفاوتة ومناسبات مختلفة فإنها تعكس هموم الزمن الحاضر لأنها تدخل في صميم حياتنا الثقافية المعاصرة وتعالج قضايا ثقافية غير مرتبطة بزمان أو مكان معينين كقضايا النقد الأدبي والابداع الكتابي والترجمة والعلاقة بين الأدب والصحافة وغير ذلك من الموضوعات التي تهم النقاد والأدباء. ومما يضفي على الكتاب أهمية أن صاحبه أديب متمكن صال وجال في ميدان الأدب وخاض غمار الصحافة لعشرات السنين، فهو عندما يتحدث عن شؤون الأدب وشجونه أنما يمتح من أرضية أدبية غنية وينهل من خبرات صحفية عريضة.

ولنطف الآن طوافاً سريعاً في بعض جوانب الكتاب: في مجال النقد الأدبي يعارض الدكتور سهيل ادريس الكثيرين من الأدباء والنقاد الذين ينادون بوضع أسس وقواعد ومعايير للنقد الأدبي، وهو يرى أن الذوق يمثل الأساس في النقد، وهذا صحيح. فكما أن الموهبة لا التعلم هي التي تمنح الأديب القدرة على الابداع الأدبي، فإنّ، الذوق لا الأحكام هو الذي ينير طريق الناقد الأدبي، ولكننا بالطبع لا يمكن أن ننكر دور المران والخبرة والدراية في انماء حسّ الذوق وصقله. وينحي المؤلف باللائمة على النقاد الذين لا يرون في النقد سوى متعة والهاء وتسلية. فالنقد رسالة قبل كل شيء والناقد يجب ألا يكتفي بوزن العمل الأدبي مفرقاً غثه عن سمينه ومميزاً بين جيده ورديئه، بل إن عليه أن يرشد إلى الأدب الصحيح ويبين الاتجاهات السليمة والمسالك الصائبة فيه. وبتعبير آخر فإن مهمة الناقد ينبغي ألا تنحصر في رسم الواقع الأدبي وتقويمه وبيان مناقبه ومثالبه وإنما أن تتعدى ذلك إلى التوجيه والارشاد، ويدعو الدكتور سهيل إلى تحرير النقد الأدبي من التملق والزلفى من جهة، ومن التجريح المغرض من جهة أخرى. وهذه نقطة هامة. فالغرضية هي آفة النقد الأدبي، وعلى الناقد أن ينظر إلى العمل الأدبي بالمنظار الموضوعي الذي يعتمد على الاثبات والبرهان والقيمة الفعلية لا بالمنظار الشخصي الذي يدخل العلاقات الشخصية والعواطف الخاصة عناصر فاعلة في النقد. ويرى المؤلف أن النقد الأدبي لم يتطور كما تطورت الفنون الأدبية الأخرى مثل القصة والشعر والمسرحية، مما يجعل الحاجة ماسّة إلى دعم هذا الفن الأدبي وارساء أسس فن نقدي أدبي عربي يقوم على أعمدة وقواعد سليمة. ونستطيع البرهنة بسهولة على وجهة نظر المؤلف القائلة بعدم مجاراة النقد الأدبي للفنون الأدبية الأخرى وتخلفه عنها من خلال مقارنة عدد القلة من النقاد الأدبيين الحقيقيين في الوطن العربي بعدد الكثرة من القصاصين أو الشعراء أو كتاب المسرحية. ونقصد بالناقد الحقيقي الناقد المتخصص الذي يمارس النقد كعمل أساسي قائم بذاته لا كعمل ثانوي مكمل لأعمال أدبية أخرى.

* * *

وكانت للمؤلف وقفة طويلة مع الترجمة وهو يدخلها في عداد الأدب، ويعدها نمطاً أدبياً هاماً، وفي هذا تكريم للترجمة التي تتعرض للغبن وبخس الحق من جانب بعضهم، ممن يفرقون بينها وبين العمل الأدبي فيرون في المترجم ناقلاً لا أديباً. ويشعر الدكتور سهيل بالتفاؤل لأن حركة الترجمة آخذة بالاتساع ولأن اقبال القراء ازداد أكثر من أي وقت مضى رغبة في الاطلاع على ثقافات الشعوب الأخرى وعلومها. ومع ذلك فإننا نعتقد أن الترجمة ما زالت تعاني من سوء التقدير، فهي لم تتبوأ بعد

مكانتها الصحيحة وما زال المردود المعنوي والمادي للكلمة المترجمة يقل عن مردود الكلمة الموضوعة، مع أن الجهد المبذول في هذه لا يقلّ عنه في تلك، كما أن الفائدة التي تقدّمها الكلمة المترجمة لا تقلّ عن فائدة الكلمة الأصيلة إن لم تفقها في مجالات كثيرة كالمجال العلمي. أما عن طرق الترجمة، ففي حين لا يورد بعض الأدباء سوى طريقتين للترجمة أولاهما الترجمة الحرفية التي تنقل النص بدقائقه الحرفية وثانيتها الترجمة التصرفية التي تترك مجالاً لشيء من الحذف والاضافة والتعديل، فإن المؤلف يعتقد أن الطريقة المثلى للترجمة أن يختار المترجم لكل نص الطريقة التي تلائمه. وهذا قول سليم، فهناك حالات لا تصح فيها إلا الترجمة الحرفية الدقيقة، كما في النصوص العلمية والطبية والقانونية، حتى أن اسقاط أو زيادة كلمة واحدة قد تغير جوهر المعنى أو تودي به. وهناك حالات أخرى لا بد فيها من التصرّف وبخاصة في النصوص الأدبية والشعرية، لأن الترجمة الحرفية فيها تجعل النص جافاً يفتقر إلى الحياة. والحقيقة أن الترجمة المثالية هي تلك التي تكون أقرب إلى نقل مضمون النص وروحه في آن واحد، مهما كانت الطريقة المتبعة.. وهذا بالطبع ليس بالأمر اليسير، فالترجمة السليمة نصاً وروحاً تستلزم امتلاك ناصية اللغتين المترجم عنها والمترجم إليها امتلاكاً كاملاً، وهذا لا يتيسّر الا للقلّة القليلة من المترجمين. ويؤكد الدكتور سهيل ادريس على اهمية وعي المترجم في اختيار المادة الصالحة للترجمة وهو يولي المادة العلمية اهتماماً خاصاً. وقد أصاب المؤلف حقاً في هذه النقطة لأن الترجمة في المجال العلمي والطبي تبدو لنا أكثر الحاحاً بكثير من المجال الأدبي. فنحن قد نجاري الشعوب المتقدمة ونباريها في انتاج القصص والروايات والأشعار، مما يجعل الترجمة في هذه الميادين رغم ضرورتها ليست بأهمية الترجمة عن العلوم والتقنيات الأجنبية التي تسبقنا فيها الدول المتقدمة أشواطاً بعيدة.

أما بالنسبة للشعر، فإن اهتمام المؤلف به يظهر في أكثر من فصل، وهو ينافح عنه بحماس بالغ ويعارض خصوم الشعر الذين يرون أن دوره في ظل المادية المستشرية والعلاقات الدولية القائمة قد أخذ يضمحل ويذوي في كل مكان. وهكذا فإن المؤلف هو من ذلك الفريق الذي يرى في الشعر أهم الأنماط الأدبية وأكثرها قدرة على التأثير في الجماهير. أما نحن فنرى أن الشعر رغم أهميته الانسانية والفنية أخذ يفقد بعض رونقه، ومكانته القديمة لأسباب كثيرة، منها دخول كثيرين من أشباه الشعراء حلبة الشعر عن غير جدارة، وجنوح بعضهم إلى المبالغات الخيالية والتهويل الشعري أو إلى الغموض المصطنع وبسبب اعتبار الشعر أحياناً وسيلة للمتعة والتسلية.

★ ★ ★

وهناك فصل عن العلاقة بين الأدب والحياة ينتقد فيه المؤلف الأدباء الواقعيين الذين يصورون الواقع كما هو، الأمر الذي يجعل من الكاتب مجرد راوية أو ناقل. وفي رأي الدكتور سهيل ادريس أن الفن يستلزم تجاوز الواقع إلى الحياة وتجاوز الحياة إلى ما هو أكثر من الحياة. أي أن على الكاتب ألا يكتفي بنقل صورة ما هو موجود كما هي مرسومة على حائط الواقع بل لا بد له أن يضيف إليها رعشته الفنية وحسه الجمالي وتصوراته الخاصة، فالكاتب ليس مجرد مصور وإنما هو فنان قادر على الالهام والايحاء.

★ ★ ★

ويتحدث المؤلف أيضاً عن بعض جوانب العلاقة بين الصحافة والأدب، مبيناً دور الأولى في افساد الثاني، فهناك للأسف كثير من المشرفين على الصفحات الثقافية في الصحف اليومية أو المجلات الأسبوعية غير جديرين بتحمل المسؤولية ويفتقرون إلى الكفاية الأدبية. وهم بتعليقاتهم الصحفية الهزيلة ونقدهم الأدبي المراهق يسيئون إلى الأدب ويشوّهون صورته الزاهية... أين من ذلك... الحال في البلدان الأجنبية المتقدمة حيث يتولى شؤون الصفحات الثقافية خيرة الأدباء والنقاد؟

ويشعر الدكتور سهيل بالأسى لاستشراء هذه الظاهرة في الصحافة اللبنانية بشكل خاص، ولكننا نرى أن الصحافة العربية كلها، لا اللبنانية وحدها، تعاني من ذلك. فمراهقو الأدب وتلامذة الصحافة كثيراً ما يسيطرون على الصفحات الثقافية العربية فيبعدون عنها الأقلام الجادة الكفية حتى لا ينكشف ضعفهم ويتعرى جهلهم في حين يشجعون الأقلام المهترئة على تحريرها، لأن ذلك وحده يوفر لهم البروز، فتكون النتيجة انحدار مستوى الصحف التي يشرفون عليها إلى المستوى الذي نشهده اليوم في كثير من صحفنا اليومية!

★ ★ ★

ومن الأمور التي أولاها المؤلف اهتمامه مسألة أزمة الابداع التي يعزوها إلى ظروف سياسية عامة نشأت بعد حرب حزيران. فالأسى الناجم عن الهزيمة لا يساعد في رأيه على انتاج أعمال كتابية صالحة للوحي والالهام. ونحن نخالفه في ذلك، فالمحن والكوارث في رأينا هي التي تفجر ينابيع الأدب ولكن غياب حرية التعبير هو الذي أدى بالدرجة الأولى إلى تراجع الكلمة وكساد الأدب وركود الابداع الكتابي. وهناك طبعاً أسباب أخرى منها الضغط المعيشي الذي يحد من حماس الكاتب وتفرغه للابداع الأدبي ومنها احباطات النشر الناجمة عن ربط النشر في كثير من الحالات بالعوامل السياسية والدعائية والمزاجية والشخصية، بصرف النظر عن الجودة والقيمة الأدبية وفي بعض الأقطار العربية يُصنّف لكتّاب حسب ولائهم للسلطة بحيث أن الصحف والمجلات ومؤسسات النشر فيها تكون مطالبة دائماً بإبراز اسماء للكتّاب الذين يتقنون فن الرياء والزلفى وبطمس اسماء الكتّاب المحايدين الذين يرعون حرمة الكلمة ويترفعون عن النفاق والمصانعة والانتهازية.

وفي مجال التأليف والنشر يتحدث الدكتور سهيل عن الحساسية العربية في ميدان القيادة الفكرية لحركة النشر والثقافة والأدب، فهل يتولاها هذا البلد العربي أم ذاك؟ هل تكون مصر العربية أم لبنان مثلاً المركز الرئيس للنشر؟ وهو يأسف لمثل هذه المنافسات الاقليمية الضيقة. ونحن نشاركه هذا الأسف لأن علينا أن نقيس الأمور بمنظار عربي واسع لا بمنظار محلي ضيق، فالثقافة هي ثقافة عربية لا ثقافة مصرية أو سورية أو عراقية... إلخ والأدب أدب عربي والنشر نشر لكتّاب عرب.... فهذا هو المنطلق الذي يجب أن نتمسك به ونصر عليه.

* * *

ويقف المؤلف وقفه قصيرة مع أبطال الرواية العربية الحديثة فيبين كيف أن البطولات الخارقة والمعجزات القصصية لم يعد لها مكان فسيح في الروايات الحديثة، فأبطالها أناس عاديون يميزهم عن سواهم انسانيتهم ومواقفهم النبيلة وقدرتهم على مواجهة الواقع والتكيف معه. ولهذا طبعاً ما يبرره. فالعقل الناضج الحديث لم يعد يستسيغ فكرة السوبرمان الذي يركب الأخطار ويضرب في مفاوز المغامرات دون مبرر. فالبطل الحقيقي هو الانسان المتكامل الذي نجد له نظيراً على أرض الواقع، ويتمتّع بسمات معقولة واقعية لا بصفات أسطورية خيالية.

ويدعو المؤلف أخيراً إلى ثورة ثقافية تكمل الثورات الثقافية القديمة وتمثل امتداداً لها لا خروجاً عليها، لأن البدء بثورة جديدة ونهج جديد يعني في رأيه البدء من نقطة الصفر. ونحن نرى أن أي ثورة ثقافية سواء أكانت جديدة أم امتدادية لا يمكن أن تنجح إلاّ في ظلّ ظروف سياسية عربية مواتية. فالثقافة كما هو معلوم تتأثر تأثراً أساسياً بالسياسة. ويطالب الدكتور سهيل من أجل بناء معالم النهضة الثقافية العربية بالاستفادة من التراث والمعاصرة في آن واحد، دون اغماض العين عن السلبيات الموجودة في كل منهما. أي أنه يدعو إلى أخذ ما هو مفيد من التراث والمعاصرة ونبذ ما هو ضار. وهذا موقف وسط معقول بين الموقفين المتطرفين اللذين ينادي أحدهما باستلهام الماضي والعودة إلى التراث في كل شيء ويدعو ثانيهما إلى التخلي عن التراث والاعتماد على كل ما هو حديث. ونحن مع الموقف المرن الذي يتبناه الدكتور سهيل ولا يترك مجالاً للتصلب والتعصب والرعونة بل يبحث عن الخير والفائدة أينما وجدا.

* * *

وكان للأدب الأجنبي نصيب لا بأس به في الكتاب، فهناك حديث عن الشاعر الفرنسي الأعجوبة ارتور رامبو الذي تفتحت عبقريته الشعرية وهو في سن الخامسة عشرة فمارس الشعر لمدة خمس سنوات ثم آثر العمل في حقل التجارة.. جرياً وراء المال، واعتزال رامبو للكتابة وتوجهه نحو التجارة يطرحان سؤالاً هاماً: هل هناك طلاق بين الأدب والمال؟ هل يعني التفرغ للأدب والشعر فقراً واملاقاً؟! هذا صحيح في الأقطار العربية، فهل هو كذلك في الأقطار الأجنبية؟ إن المردود للعمل الفكري والكتابي في الأقطار المتقدمة هو في اعتقادنا مردود مجز ومغر ولكنه لا يصل مع ذلك إلى مستوى مردود العمل التجاري وهكذا يظل الغبن وسوء التقدير من نصيب الكلمة وصاحب الكلمة في كل مكان ولكن بدرجات متفاوتة.

ومن الذين تناولهم المؤلف فلوبير الروائي الفرنسي والرحالة الشهير الذي سبق أن زار سورية ولبنان واطلع على معالمها ورسم الكثير من آثارها. والطريف أن هذا الأديب معجب بالشرق ولكن ليس بأهله! فهل هو محق في ذلك؟

ويأتي الدكتور سهيل على ذكر البير كامو الأديب الفرنسي ذي التوجه الأدبي الأخلاقي المتطرف الذي تحدث كثيراً عن العبث في الحياة فجاء موته في حادثة صدام غير عادية ضرباً من ضروب العبث... عبث القدر بمصير الإنسان!

ويكن المؤلف احتراماً خاصاً لسارتر... أكبر منافح عن الحرية. وهذا ليس غريباً، إذ أن من واجب كل أديب ومثقف أن يحمل أكبر التقدير لسارتر لأن الكتابة لا معنى لها أصلاً دون حرية، ودفاع سارتر عن الحرية هو دفاع عن الأدب والابداع الكتابي بل إننا نستطيع أن نغزو السبب الرئيسي لاضمحلال حركة الإبداع الأدبي العربي في وقتنا الحاضر إلى غياب حرية الصحافة والنشر.